الثقافة ومفهوم الوقت

Mohamed Rabie

إن أهمية الوقت (Time) في الوقت الحاضر لا توازيها أهمية شيء آخر في حياة المجتمعات الإنسانية، إذ في غياب مفهوم دقيق للوقت وطرق حساب الوقت لا يمكن إتمام عملية تواصل عبر الإنترنيت في وقتها، كما لا يمكن إرسال مركبة إلى الفضاء والتحكم فيها، ولا تحويل مال من بنك إلى بنك خلال ثواني. ويعود السبب في ذلك كله إلى كون تلك العمليات تحتاج إلى تنسيق محكم بين مئات العمليات الفنية خلال أجزاء من الثانية لضمان انتقال المعلومات والصور الفوتوغرافية وتحويلها إلى الشكل الذي يُمكِّن الشخص الذي يستقبلها من التعرف عليها. لذلك أصبحت نظرة الأفراد والشعوب عامة للوقت وكيفية تعاملهم معه تؤثر بشكل كبير ومباشر على حياتهم اليومية وعلى ما يحققون من إنجازات مادية ومعنوية، اقتصادية وثقافية على أرض الواقع. تحاول هذه الورقة توضيح أهمية الوقت في حياة الفرد والمجتمع، وأثرها على مستقبل الشعوب المختلفة، وتحديد مراحل تطور نظرة الإنسان إلى الوقت عبر الزمن وأثر تلك النظرة على تقدم بعض المجتمعات وتخلف بعضها الآخر.

وعلى الرغم من قيام بعض المجتمعات الإنسانية قديماً بالتحايل على الوقت والتهرب من ضغوطاته، لم يستطع مجتمع أن يتجنب استحقاقات الوقت أو إهماله لفترة طويلة. وفي الواقع، لم يستطع شعب من شعوب الأرض بناء مستقبل أفضل أو حتى التفكير في المستقبل من دون أن يأخذ الوقت واستحقاقاته في الحسبان، خاصة فيما يتعلق بالعملية الإنتاجية والمكانة الدولية والاحتياجات الأمنية. وحيث إن الوقت لم يكن يوما بريئاً، وليس بإمكانه أن يكون بريئاً، فإن علاقة الناس به اتصفت عبر التاريخ بالصعوبة والتعقيد، والتحول من حال إلى حال. وهذا جعل المجتمعات الإنسانية المختلفة تتعامل مع الوقت بدرجات متفاوتة من التقدير، تراوحت ما بين عدم الاكتراث والإهمال إلى الاحترام الحذر، ومن التقدير المتواضع إلى الاهتمام البالغ. ويعود السبب في هذا التفاوت لعدة أمور، أهمها طبيعة الثقافات السائدة في كل مجتمع، ومرحلة التطور الحضاري التي يمر بها المجتمع المعني، ونمط الإنتاج الاقتصادي السائد فيه، وموقع الثقافة من حياة ذلك المجتمع؛ وذلك إضافة إلى مدى وعي القيادات التي تحكم المجتمع المعني وتتحكم فيه بأهمية الوقت ودوره المحوري في التأثير في إدارة أمور الحاضر وصنع المستقبل.

يشير التاريخ إلى أن المجتمعات والجماعات الإنسانية التي تعاملت مع الوقت باعتباره شيئاً ثميناً كانت دوماً هي الأقدر على استثماره والأكثر إنجازاً وتقدماً من الناحيتين الاقتصادية والثقافية. فالمجتمعات التي اتجهت إلى

استخدام الوقت المُتاح بكفاءة، وقامت بمحاولة الاستفادة منه بقدر الإمكان، استطاعت أن تنتج المزيد من السلع والخدمات والعلوم والفنون والآداب، ما جعل حياة الناس فيها أكثر متعة وأمناً، وهذا عزز قدرات تلك المجتمعات على مواجهة التحديات الآنية والمستقبلية. أما المجتمعات التي اتجهت إلى إهمال الوقت وعدم الاكتراث به، فإن الوقت أهملها أيضاً، وتركها خلفه تعيش في زمن تجاوزه الزمن، تعاني التخلف بأبعاده الثقافية والاقتصادية والتكنولوجية والعلمية والبيئية؛ الأمر الذي تسبب في إضعاف قدرات تلك المجتمعات على تحقيق الأمن والتقدم، وحرمانها من التمتع بحياتها وإثراء تلك الحياة. وفي ضوء محدودية الإمكانات التكنولوجية والعلمية التي تملكها المجتمعات الأقل نمواً وعلماً، فإن تلك المجتمعات فقدت القدرة الذاتية والإرادة الجماعية على مواجهة التحديات، ما دفع غالبيتها إلى الاستكانة والقبول بالتبعية للغير من الدول والتخلف عن العصر وعلومه. إن كافة الشعوب التي أهملت الوقت ولم تستفد منه بالقدر المكن لم تستطع المحافظة على موقعها بين شعوب العالم، وليس باستطاعتها النظر إلى المستقبل بأمل وتفاؤل.

على الرغم من أن غالبية شعوب الأرض أصبحت اليوم قادرة على وعي أهمية الوقت واستيعاب دوره في حياة المجتمعات المختلفة، إلا أن معظم المجتمعات الإنسانية، وعبر كافة مراحل التاريخ التي سبقت عصر الصناعة، لم تعترم الوقت بالقدر المطلوب، ولم تتعامل معه بإيجابية. وفي الواقع، اتجهت كل الشعوب تقريباً، وذلك حتى العصور الحديثة، إلى اعتبار الوقت عبئاً على المجتمع يوجب التخلص منه وقتله إن أمكن، وذلك بدلاً من التعامل معه كثروة مجتمعية توجب الاستثمار واستغلال الفرص السانحة ضمن الوقت المتاح. نتيجة لذلك، تمتعت شعوب الأزمنة القديمة بالسعادة والمتعة إثناء قيامها بهدر الوقت وإضاعته، ولم تشعر بندم لضياع فرصة، لكنها دفعت الثمن فيما بعد على شكل تخلف وفقر وضعف وتبعية. وعلى سبيل المثال، تبذل الشعوب العربية اليوم من مالها وصحتها وجهدها على نشاطات قتل الوقت أكثر بكثير مما تنفق على النشاطات العلمية والفكرية والثقافية والعناية بالبيئة مجتمعة. لكن الوقت، وأن ضاع بالنسبة للبعض، لا يتهاون أبدا مع من يقوم بإهماله، أو يُقلل من شأنه، أو يشكك في قدرته على التأثير في الحاضر والمستقبل، فالوقت بهمل من يهمله، ويعاقب من يحاول الاعتداء عليه وهدر دمه، كما فعل وما يزال يفعل في عامة أبناء ودول الأمة العربية.

مراحل تطور الوعي بأهمية الوقت

حين ظهر المجتمع الرعوي في صورته البدائية قبل نحو ثلاثين ألف عام لم يكن لدى ذلك المجتمع مفهوماً للوقت، كما أن نمط حياته لم يفرض عليه التفكير في معنى الوقت وأهميته وتطوير موقف إيجابي أو سلبي منه. إلا أن

ارتباط الوقت بالزمان والمكان وفصول السنة وتقلبات الجو، فرض على كل إنسان وكل مجتمع أن يتعامل مع استحقاقات الوقت بشكل أو بآخر، بوعي أحياناً ومن دون وعي في غالبية الأحيان الأخرى. لذلك اتجه المجتمع القبلي عامة إلى التعامل مع الوقت بالالتفاف حوله والتهرب منه، وذلك بالانتقال من مكان لآخر بحثاً عن أمكنة أفضل توفر له متطلبات البقاء والأمن بعيداً عن تحديات الوقت. ولقد تسبب هذا الموقف الهروبي من الوقت إلى تطوير عادات وتقاليد استهدفت التحرر من محددات البيئة الطبيعية والتقلبات المناخية، كان من نتائجها قيام المجتمع القبلي بتبني نمطا إنتاجيا وحياتيا عماده التجوال والتنقل المستمر، والرعي والغزو والسبي والسلب. وعلى الرغم من نجاح ذلك النمط في توفير المتطلبات الأساسية لحياة بدائية، إلا أنه حرم القبلي من فرصة إعادة تشكيل بعض عناصر بيئته الطبيعية، وتطوير طريقة حياته القبلية البدائية. وهذا جعل ذلك المجتمع يعيش آلاف السنين من دون أن يستغل أي جزء من الكم الهائل من الوقت الذي توفر له لتطوير ثقافته ونمط إنتاجه وعناصر بيئته الاجتماعية والتكنولوجية، والانتقال إلى مرحلة حضارية أكثر إنتاجية وأمناً واستقراراً ورقياً.

قبل نحو 12 ألف سنة اكتشف الإنسان دورة حياة النباتات والأشجار، ما جعله يقوم بتطوير فن زراعة الأرض الذي تتطور ليغدو نمط إنتاج اقتصادي جديد وطريقة حياة تختلف جذريا عن طريقة حياة البدوي الرعوية. وهكذا انتقل الإنسان الذي اكتشف الزراعة من عصر القبلية والبداوة إلى عصر الزراعة الأكثر إنتاجا واستقرارا وأمنا وإنسانية، ونزوعا نحو السلم. ومع اتجاه الإنسان إلى احتراف فلاحة الأرض، بدأت حركة بناء البيوت والقرى كمراكز إنتاج زراعية، وتشييد المدن كمراكز تجارية وسياسية وثقافية، وبناء الطرق لتسهيل عمليات السفر والتجارة، وظهور الحرف والدول والدين. ولقد وفرت تلك الأمور للمجتمع الزراعي قدراً كبيراً من الأمن الغذائي والاستقرار النفسي، إضافة إلى غرس بذور التقدم والتطور في الحياة المجتمعية. ولقد تبع ذلك تطور اللغات وتطوير فنون الكتابة وغيرها من وسائل تواصل بين الناس والتجمعات الإنسانية المتباعدة. وهذا أدى بدوره إلى تشجيع المجتمع الزراعي على تطوير مفهوم واضح للوقت، وفرض علية إدراك مغزي وثقل التحديات التي يجسدها الوقت على أرض الواقع، ما دفعه إلى التفكير في كيفية التعامل مع استحقاقات الوقت.

لذلك، قام المجتمع الفلاحي بتطوير أنماط الإنتاج وعلاقات الإنتاج على أسس جديدة، والتوجه نحو تطوير نظم الري ووسائل المواصلات، وتشييد بيوت أكثر مقاومة للحر والبرد والتقلبات الجوية. وهذا مكن الإنسان الريفي من الحصول على الغذاء والأمن الغذائي، ودفعه في اتجاه تطوير تقنيات جديدة للحفاظ على صلاحية بعض المأكولات مثل الفواكه والخضراوات والحبوب واللحوم لمدد طويلة، واستخدام جزء مما لديه من وقت للتفكير في الكون وفي المستقبل. وفي الواقع، شهد المجتمع الزراعي ميلاد فكرة التقدم والفكرة الدينية التي جاءت لتفسير معنى

الحياة ومعنى وجود الإنسان فها، وتحديد هدفها وغير ذلك من أمور غيبية. إن تعامل الإنسان الزراعي مع واقع حياته ومتطلباتها بهذا الشكل الإيجابي جاء تحت ضغوطات نظام الإنتاج الجديد أولاً، وبسبب إدراكه لأهمية الوقت وتمكنه من تطوير مفهوم واضح لمعنى الوقت ودوره في حياة المجتمع ثانياً.

لكن على الرغم من إدراك المجتمع الزراعي أهمية الوقت، وطبيعة التحديات التي يفرضها عليه، إلا إن المفهوم العام الذي طوره ذلك المجتمع للوقت جاء غير علمي، وإن كان عملياً، كما أن الموقف الذي اتخذه من الوقت جاء سلبياً وليس إيجابياً. لقد نظر الفلاح والمزارع إلى الوقت باعتباره عبئاً فردياً ومجتمعياً، ما جعل الفلاح يتحه نحو بذل جهد كبير للتخلص من الوقت، وتخفيف ثقل الأعباء التي يشكلها. إذ إن اضطرار الفلاح إلى انتظار مواسم الزراعة، ومواسم الري وسقوط الأمطار، ومواسم تفتح الأزهار وجني الثمار، وحصاد المزروعات جعل الانتظار طويلاً ومملاً وثقيلاً على النفس. وهذا دفع الفلاح إلى اتخاذ موقف عدائي من الوقت، تلخص في البحث عن وسائل للتخلص منه، وابتكار أساليب ووسائل مختلفة لتمضية الوقت وتخفيف عبء الانتظار. ومع أن الإنسان الزراعي استطاع من خلال محاولات "قتل الوقت" وهدر دمه أن يتوصل إلى تطوير عادات وتقاليد وطقوس مبتكره جعلت ممارسات هدر الوقت ممتعة، كإقامة حفلات الغناء والطرب، والمبارزات الرياضية، ولعب الورق وأحجار الدومينو، والتدخين، وتعاطي المخدرات، وغيرها من ألعاب ونشاطات اجتماعية كانت تمارس وما تزال في البيوت والمقاهي والأزقة والحواري والساحات العامة، خاصة في الأحياء الفقيرة الكائنة في المدن الكبيرة.

لكن عادات "قتل الوقت" لها آثار سلبية كبيرة على حياة الفرد والمجتمعات التي تمارسها، إذ تدفعها محاولات قتل الوقت إلى التهرب من التحديات المصيرية الكبرى، ومواجهة القليل والضروري منها فقط. ولقد كان من نتيجة هذا الموقف الهروبي إصابة كافة المجتمعات التي اتجهت إلى قتل الوقت بالفشل في تحقيق تقدم ملحوظ في أي مجال من مجالات الحياة، ونجاحها فقط في إضاعة الكثير من الفرص. وهذا يعني أن كافة المجتمعات التي ما تزال تعيش في عصور ما قبل الصناعة قد حرمت نفسها، بسبب موقفها السلبي من الوقت، من زيادة قدراتها العلمية والتكنولوجية، وإثراء حياتها من النواحي المادية والثقافية بالقدر المطلوب والممكن لتسريع عملية التطور المجتمعي واللحاق بالعصر. وفي الواقع، ونتيجة لمواقف العداء من الوقت وتطوير فنون هدر دمه، عاش المجتمع الزراعي نحو عشرة آلاف سنة من دون أن يشهد حدوث تغير نوعي في مستوى حياته أو أمنه أو ثقافته أو إدراكه العلى.

قبل نحو 270 سنة، أي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ظهر المجتمع الصناعي وتبلور معه وبسببه مفهوم جديد للوقت. إن قيام الاقطاعيين في حينه بالاستيلاء على الأراضي الزراعية وطرد الفلاحين منها، تسبب في

القضاء على نظام التكافل الاجتماعي المتبادل بين الفلاح ومالك الأرض، ما أدى إلى حرمان معظم الفلاحين من مصدر رزقهم وأمنهم الغذائي والسكني الوحيد. في ضوء تلك التطورات، لم يعد لدى الفلاح الذي فقد أرضه وبيته سوى قواه الجسدية والوقت المتاح له لاستغلالها من أجل توفير المأكل والمشرب والمسكن له ولأفراد أسرته. ومع تقلص فرص العمل في الزراعة، كانت فرص العمل في قطاع الصناعة تتزايد بشكل مضطرد، ما جعل الفلاحين القدماء وعمال المزارع يتحولون تدريجياً إلى عمال صناعيين. ولقد تبع ذلك وترتب عليه تطوير نظرة المجتمع الصناعي الجديد للوقت، بما في ذلك نظرة العامل وصاحب العمل والتاجر، حيث أصبح "الوقت ثروة" "والثروة وقت". وهذا دفع المجتمع الصناعي بكافة فئاته إلى العمل بإصرار على تطوير الوسائل والأدوات والنظم الكفيلة باستغلال المتاح من الوقت وتعظيم العوائد المادية والمعنوبة منه بقدر الإمكان.

إن نظرة المجتمع الجديد للوقت بوصفه ثروة فردية ومجتمعية دفع أصحاب العمل ومدراء الشركات ورجال المال والأعمال والدولة والمؤسسات العلمية والتربوية والمثقفين إلى إعادة تفسير العادات والتقاليد والقيم كي تتجاوب مع متطلبات نمط الإنتاج الصناعي. وهذا استوجب كتابة قوانين وتشريعات ودساتير جديدة تختلف كثيرا عما سبقها، وتطوير نظم اجتماعية وإدارية مبتكرة، وإرساء تقاليد عمل غير مسبوقة؛ كل هذه التطورات جاءت بهدف رفع إنتاجية العمل والعامل ضمن الوقت المتاح، وتقليل الوقت الضائع أثناء عمليات الإنتاج وفترات الراحة. ولقد نتج عن ذلك كله تطوير علاقات إنتاج جديدة، وتغيير طرق الحياة والتفكير التقليدية، وزيادة حدة المنافسة بين الشركات الصناعية والتجارية والمالية. وفي ضوء تسارع الاكتشافات الجغرافية والعلمية، وتراكم المعارف التكنولوجية، وتحديث معدات الإنتاج وأدواته وأساليبه باستمرار، تسارعت أيضاً معدلات الإنتاج وتزايدت الأرباح وارتفعت المعاشات، ما أدى إلى تحسين مستوى حياة الفرد وتنمية الاقتصادات الوطنية. وخلال فترة لم تزد كثيرا عن 100 عام تبلور المجتمع الصناعي بخصائصه الميكانيكية المميزة وتوجهاته نحو الاعتماد المتزايد على العلم والتكنولوجيا والألة والوقت. وهكذا أصبحت مفاهيم كفاءة الإنتاج، وإنتاجية العامل، وقيم العمل، والاستثمار في التعليم، والتقدم العلمي، والتطور العلمي والتكنولوجي، ومؤسسات البحث والتطوير العلمي والتكنولوجي، واستغلال الوقت أدوات سحرية يسعى كل المعنيين بالعمل الاقتصادى والمعرفة إلى امتلاك القدر الأكبر منها.

اليوم، ونحن على وشك تجاوز الفترة الانتقالية المؤدية إلى عصر المعرفة، نلاحظ أن كل من دخل هذه الفترة بنجاح، وكل من يُسهم في تشكيل عصر المعرفة من أفراد ومؤسسات وقيادات أخذ ينغمس، وبشكل شبه جنوني، في تطوير نظم العمل والمعدات الصناعية والأجهزة التكنولوجية القديمة، وتحديث وسائل الاتصال والمعلومات الإلكترونية، واختراع المزيد والجديد من المعدات والأنظمة لاستغلال الوقت المتاح بأكبر درجة ممكنة من الكفاءة.

وفي ضوء تسارع الحياة وتزايد تعقيداتها يوما بعد يوم، فإن مفهوم الوقت الذي عرفه عصر الصناعة بدأ يتغير بسرعة، ما جعل المجتمع الجديد يتعامل مع الوقت بالتركيز على الجزء من الثانية وليس على يوم العمل أو ساعة العمل. وفي الواقع، أصبح الوقت في عصر المعرفة، وفيما يتعلق بنشاطات سباق السيارات والعدائين والخيول والمباريات الرياضية، ونقل المعلومات عبر الإنترنت، وتحويل الأموال إلكترونياً عبر المحيطات، ورصد التقلبات الجوية وقراءتها وتحديد تبعاتها، وإطلاق الأقمار الصناعية للدوران حول الأرض واستكشاف طبيعة وخصائص الكواكب الأخرى لا يقاس بالساعات أو حتى بالدقائق والثواني، وإنما بأعشار الثانية.

لقد تحول الوقت عبر الزمن، وذلك بفعل التطور الحضاري والوعي الثقافي والتقدم العلمي والتطور التكنولوجي من كم مهمل إلى عبء مجتمعي، ومن عبء إلى ثروة شخصية ومؤسسية، ومن ثروة إلى أكثر الثروات ندرة وقيمة. وهذا جعل طرق استخدام الوقت وكيفية استغلاله تغدو من أهم العوامل المؤثرة في تنمية قدرات الفرد، ومدى تراكم المعارف والثروات في المجتمع، وأداة من أدوات صنع المستقبل وتحديد موقع كل شعب من غيره من الشعوب وحركة التاريخ. ولهذا أصبحت الفجوات العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والصحية التي تفصل مختلف الأمم والشعوب عن بعضها البعض تعكس تباين نظرة تلك الشعوب للوقت، وتفاوت قدراتها على استثماره واستغلال الفرص التي يوفرها، ومدى استعدادها للتجاوب الفعال مع استحقاقاته.

إن فشل المجتمع العربي في دخول عصر الصناعة وما بعده، يجعل الثقافة العربية السائدة اليوم ثقافة زراعية مع بعض الترسبات القبلية والتشوهات الاستهلاكية الرأسمالية. ولهذا نلاحظ أن نظرة العرب للوقت تتصف عموماً بالسلبية، وذلك على الرغم من تقلص المجتمع القبلي وتواجده ضمن جيوب صغيرة متناثرة في عرض الوطن العربي الكبير، وتراجع نسب العاملين في قطاع الزراعة، وتزايد نسب العاملين في الخدمات من سكان المدن. إن الوقت بالنسبة لغالبية العرب، حتى بالنسبة لبعض المتواجديسن منهم في المهجر، يعتبر عبئاً وليس ثروة فردية أو جماعية. وحتى مجتمع المدينة العربية التقليدية، وهو مجتمع لا يتعامل بالزراعة ولا يمارس مهنة فلاحة الأرض، لا يزال يعيش ثقافة القربة أو العشيرة، أو ثقافة هجينة تختلط فها ثقافة الريف مع ثقافة البادية. ويعود السبب في يزال يعيش ثقافة القربة أو العشيرة، أو ثقافة هجينة تختلط فها ثقافة الربف مع ثقافة البادية، واتجاه الدولة إلى هذا الأمر أساساً إلى فشل الشعوب العربية في الانتقال من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة، واتجاه الدولة إلى القروبين والبدو بأعداد كبيرة إلى مدن لم تكن مستعدة لاستقبالهم وليس لديها الإمكانات المادية لاستيعاهم وإعادة تشكيل ثقافاتهم. وهذا جعل قيم وعادات وتقاليد ومواقف الغزاة من أهل الأرباف والبوادي تسيطر مجددا على قيم وعادات وتقاليد ومواقف الغزاة من أهل الأرباف والبوادي تسيطر مجددا على قيم وعادات وتقاليد ومواقف الغزاة من أهل الأرباف والبوادي تسيطر مجددا على قيم

نتيجة لهذه التطورات، بقي المجتمع العربي أميناً على ثقافته القروية وتقاليده البدوية العشائرية، ومواظباً على التفنن في إضاعة الوقت وهدر دمه، ومعاملته كعبء مجتمعي ثقيل الظل والظلال. ويشير واقع الحال إلى أن الفرد العربي اليوم، بغض النظر عن ثقافته ومستوى تعليمه والطبقة الاجتماعية التي ينتمي إلها والمهنة التي يزاولها، يبدو عاجزاً عن وعي أهمية الوقت والعلم والتخطيط، وبالتالي عاجزاً عن التفكير في المستقبل والمشاركة في صنعه. إن الالتزامات الاجتماعية التقليدية والأعراف العشائرية والقيم التراثية تحرم الإنسان العربي عامة من الالتزام بموعد، بل لا تسمح له بترتيب برنامج يوم واحد والالتزام به بدقة. من ناحية ثانية، هناك بعض الأفكار الدينية والكثير من العادات والخرافات المتوارثة التي تشجع الإنسان العربي على الكسل والتواكل، فيما تعزو النجاح والفشل والمصائب الشخصية والكوارث الطبيعية إلى الحظ والقضاء والقدر، وهذه تقاليد وقناعات تُعفيه من مشقة التفكير في المستقبل، كما تعفيه من تحمل مسئولية ما قد يرتكبه من أخطاء بسبب الجهل وعدم المسئولية.

إن من أبرز مظاهر هدر الوقت في البلاد العربية تدخين السيجارة والأرجيلة، ولعب طاولة الزهر والورق، وقضاء ساعات على التلفون وأمام جهاز التليفزيون، وزيارة الأضرحة والقبور، والتواجد في المآتم التي أصبحت عبارة عن مناسبات اجتماعية وولائم عشائرية. وإذا كان تدخين السيجارة هو آفة قديمة مُستفحلة في كل البلدان العربية، فإن آفة تدخين الأرجيلة تغزو البلاد العربية بشكل متسارع، فيما أصبح الإدمان على التلفون والتليفزيون عاهة مستشرية وصلت إلى الأطفال، وتكاد تشمل الرضع منهم. وتشير الدراسات إلى أن معظم البلاد العربية تنفق حوالي من إجمالي دخلها القومي على السيجارة ومعالجة الأمراض التي تُسبها عملية التدخين. مع ذلك، لم تحاول دولة عربية الاقتداء بالغير من دول أوروبية وآسيوية والقيام بمحاربة تلك الأفة القاتلة والمكلفة ومنعها على الأقل من التواجد في الأماكن العامة مثل المدارس والجامعات والمستشفيات والمطاعم، وحتى الدول التي سنت تشريعات بناء على نصائح منظمة الصحة العالمية، لا تبذل جهداً يذكر لتطبيق القوانين التي سنتها. ولذا، بدلاً من العمل على محاربة هذه الأفة واستنصالها، نلاحظ اتجاه بعض الحكومات إلى ترسيخها وتعميق جذورها وضمان إدمان الأجيال القادمة عليها. إن كل دولة تحترم نفسها، وكل مجتمع يحرص على صحة أبنائه ومستقبلهم لا يمكن أن يسمح، على الأقل، بتدخين السجاير في المستشفيات والعبادات الطبية وأماكن بيع المواد الغذائية، وتدخين الأرجيلة في المطاعم والمقاهي التي تكتظ بالأطفال والرضع والنساء الحوامل.

أما تعاطي الأرجيلة، خاصة في منطقة الهلال الخصيب، فقد أصبح من أهم مظاهر "الرقي" بالنسبة للجيل "الصاعد" عُمرياً والهابط علمياً وثقافياً وأخلاقياً، وعنواناً لتحرر المرأة "المتثقفة" والطالبة المحجبة التي تريد أن تقول إن الحجاب لا يُحرِّم التعاطي مع مفاسد العصر. إن تدخين الأرجيلة هو أكثر ابتكارات هدر الوقت تكلفة من

النواحي الصحية، وضرراً من النواحي البيئية، وتدميراً للقيم من النواحي الاجتماعية. إذ تقود هذه العادة البرجوازية المرَضية إلى خلق جيل جديد من الشباب العربي، إناثاً وذكوراً، يتصف بالاستهتار والسطحية ومعاداة قيم العمل المنتج، وضعف الوعي البيئي والمسؤولية الاجتماعية، وعدم الاكتراث لصحة وحقوق غير المدخنين من الأهل والأقارب والأصدقاء. إلى جانب ذلك، تقود هذه التقليعة المُخادعة المظهر، القبيحة الجوهر إلى إبعاد الشباب عن القراءة والنشاط الثقافي والفني والعمل التطوعي، والتفكير في كيفية استغلال الوقت المتاح لبناء مستقبل أفضل لهم ولأوطانهم وشعوبهم. ومما يجعل انتشار هذه الظاهرة بمثابة كارثة ثقافية ومجتمعية أن الأولاد والبنات الذين لا يتجاوزون أحياناً سن الثالثة عشرة من العمر يجدون التشجيع من آباء وأمهات على الانغماس في ممارسة هذه العادة القبيحة. فهؤلاء آباء وأمهات يعانون تخلفا ثقافيا وعلميا، وبعيشون وبفكرون في غياب الوعي والفكر.

أن العرب عموماً يخوضون اليوم حرباً أهلية أدواتها الرئيسية الأكثر فتكاً ودماراً هي السيجارة والسيارة. فلا تزال السيارة غير قادرة على إيجاد موقع مناسب لها في مجتمع ذا ثقافة زراعية قبلية، ما يجعلها تعامل ليس كوسيلة نقل وإنتاج هامة، وإنما كلعبة في أيدي شباب مستهتر يعمل على تحطيمها بالسرعة الممكنة، ويخاطر بحياته وحياة غيره من الأبرياء والبيئة لإشباع غروره والتفاخر أمام أقرانه وإثارة حقد الفقراء ضده وضد الدولة التي تحميه. أما السيجارة فهي أمضى سلاح كيماوي ابتكره الإنسان في حياته واستخدمه للانتحار ببطء، وإصابة أولاده وأقاربه وأصدقائه وأحبائه عامة بأمراض قاتله، وفي مقدمتها أمراض القلب والرئة والسرطان والأسنان، والضعف الجنسي. وهذا يجعل جيل الأرجيلة والسيجارة والسيارة جيلاً فريداً من نوعه، يخوض حرباً أهلية طوعية لتدمير الذات والغير من الناس، وذلك في سبيل الإدمان على مخدرات من شائها أن تجر أغلبيته إلى السقوط في عالم الفساد ودنيا الرذيلة. إن ما لا يعلمه هذا الجيل أن السيجارة وحدها تسببت في قتل أعداد من البشر على مدى القرن الماضي تفوق ما قتلت كافة الحروب خلال تلك الفترة، بما في ذلك الحرب العالمية الأولى والثانية، وحروب التحرير، والحروب الأهلية، وجرائم الإبادات الجماعية، والصراعات الإثنية والقنابل الذربة.

كانت حياة الإنسان القبلي تتمحور حول الحرب، إذ كان "يحارب ليعيش ويعيش ليحارب"، وهذا أعطاه فرصة اختيار توقيت الحرب دون التقيد بوقت محدد. أما الإنسان الزراعي فإن حياته تتمحور حول الطعام، إذ نلاحظ أنه "يأكل ليعيش ويعيش ليأكل"، وهذا فرض عليه احترام مواسم إنتاج الغذاء والتحكم في أوقات وجبات الطعام. وحين انتقل الإنسان إلى العمل في المصانع وجد أن عليه أن "يعمل ليعيش ويعيش ليعمل"، وهذا جعله خادماً أميناً للوقت، ما فرض عليه احترام الوقت والعمل على استثماره بكفاءة. إما الإنسان المعرفي فقد أصبح "يتعلم ليعيش ويعيش ليتعلم"، ما بجعله أسيراً للوقت، لأن المعرفة تتقادم بتوالى الثواني وليس الساعات. ولما كان الإنسان العربي قد غيب

نفسه عن الزمان منذ الخروج من الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر، فقد اتجه إلى العمل على الهروب الواعي من تحديات عصره، وذلك بالتخصص في هدر الوقت وإراقة دمه، والتفنن في تطوير ثقافة السيجارة والأرجيلة التي تعادي كل شيء حي وجميل في جسمه، وأكل اللحوم حتى التخمة والموت من السمنة.

البروفسور محمد ربيع يحمل لقب أستاذ متميز في الاقتصاد السياسي الدولي؛ درس في 5 جامعات، وقام بالتدريس في 11 جامعة في أربع قارات. نشر حتى اليوم 58 كتاباً، 17 باللغة الإنجليزية، وواحد باللغة الألبانية، والباقى باللغة العربية. وتشمل الكتب الإنجليزية أربعة نشرتها دار: Palgrave Macmillan خلال 4 سنوات، 2013-2013: إنقاذ الرأسمالية والديمقراطية؛ التحول الاقتصادي والثقافي العالمي؛ نظرية في التنمية الاجتماعية الثقافية والاقتصادية المستدامة؛ أزمة الديون العالمية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية. أحد هذه الكتب، وعنوانه "تاريخ العنصرية" صدر في 7 لغات: الإنجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والبولندية. أما الكتب العربية فتشمل ثلاثة مجموعات شعرية، وروايتين، وقصة. والباقي كتب أكاديمية وفكرية وتأملات فلسفية، إضافة إلى عشرات الدراسات العلمية ومئات المقالات الفكرية.

الدكتور ربيع يرأس مجلس الفكر العربي في واشنطن، وعضو منتدى الفكر العربي، وزميل في مؤسسة ألكساندر فون هومبولدت الألمانية منذ عام 1992. وقد استطاع إكمال دراسته بالحصول على منح دراسية منذ المدرسة الثانوية حتى الحصول على الدكتوراه في الاقتصاد عام 1970من جامعة هيوستن في أمريكا. حائز على جائزة دولة فلسطين التقديرية على مجمل الأعمال الفكرية، وجائزة الجالية العربية في مدينة هيوستن للتميز الأكاديمي والقيادة، كما فاز بجائزة في الشعر في مهرجان تيتوفا في ماسيدونيا الجنوبية، وعدة جوائز أخرى حصل عليها من جامعات ومؤسسات عربية وأجنبية. وتعكس كتاباته ومواقفه ونشاطاته التزاماً بمبادئ السلم والعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والتنمية البشرية، فضلاً عن الاستدامة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية.

ولما كان شعاري هو: "المعرفة التي لا نشارك غيرنا فيها هي معرفة ضائعة، وأن المشاركة تتسبب في مضاعفة عدد المعرفين"، فإنني أطلب من كل قارئ أن يوصي بكل دراسة وكتاب يُعجبه، لأنه بذلك يُساعد من لم يتعرف على الكتاب وما فيه من فكر مفيد. إننا جميعا نشترك في مسؤولية تغيير عالمنا ليكون أكثر ميلا للسلم والعدالة والحرية. وهذا هدف سامي لا يمكن تحقيقه دون أن نشارك جميعا في نشر المعرفة والوعى في كافة بقاع الأرض التي ورثناها وعلينا أن نحافظ عليها.

بروفسور محمد عبد العزيز ربيع

www.yazour.com

Links to Google Scholar and ResearchGate.

https://scholar.google.com/citations?user=evo_c4QAAAAJ&hl=en&citsig=AMD79op143N3h2Qo7R_hDsZtzBuYxsGi6g

https://www.researchgate.net/profile/Mohamed-Rabie-2